امتنان الرحمن على رسول الأنام ..
سورة الضحى نموذجًا

د / عواد عبد الرحمن صياح الرويلي
استاذ مساعد في جامعة الجوف
كلية العلوم والآداب

مدخل :

الحمد لله رب العالمين ، الذي خلقنا بفضله مسلمين ، و أنعم علينا بالفضل المبين، و جعلنا به من المكرمين ، و جعلنا له عابدين حامدين ، و الصلاة و السلام على خير المرسلين ، محمد بن عبد الله الصادق الأمين ، الرحمة المهداة من أرحم الراحمين، معلمنا و قدوتنا و أشرف الخلق أجمعين ، و حبيب الرحمن و خاتم النبيين ، و على آله و صحبه ، و منْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .. أما بعد:

فإن الله – جل و علا – أنعمه علينا كثيرة ، و هباته التي أعطانا وفيرة ، جاوزت حد الحصر و التعداد ، سبحانه و تعالى رب العباد ، الرحمن ، الحنَّان المنَّان ، لا يقدر حسابها إنس و لا جان ، كما قال – جل و علا – في آيات القرآن :" **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** " **[النحل : (١٨)]** ، و هذه النعم التي أنعم الله – جل و علا – بها على عباده ، واضحة وضوح الشمس ، لا ينكرها إلا جاهل أعمى، فكل ما فينا نعم ، و كل ما حولنا نعم ، و الخلق في حد ذاته نعمة ، و الحياة نعمة ، و حتى نفس الهواء الذي نتنفسه نعمة من عديد نعمه التى لا تحصى ولا تعد .

إن الرحمن – جل و علا – قد عم عباده بنِعَمٍ عامة ، اشترك فيها كل ولد آدم – عليه السلام – كما يقول في كتابه العزيز :" **يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)** " **[الانفطار]** ، كما يقول في سورة البلد :" **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)** " و غير ذلك من نعم كما سيلي ذكره في هذا البحث ، إلا أنه خصَّ – سبحانه و تعالى – بعض عباده بنعم و منح خاصة ، فكان امتنان منه عليهم ، يفضلهم به أو يدعمهم لغرض ما و غالبًا ما تكون الدعوة لعبادته – جل و علا – ، كما نرى

هذا جليًّا مع منْ اصطافهم من عباده ، ليبلغوا رسالاته ، و هم الأنبياء و الرسل كما سيتأتى ذكره في مطلب " خصوصية نعم الله تعالى".

إن كان الله – جل و علا – قد خصَّ بعض عباده بنعم و نفحات خاصة لهم ، ليعزز موقفهم الدعوي ، مبرهنًا بالدليل المادي الملموس على صدق رسالتهم و دعوتهم ، فما بالنا بما خص به حبيبه – صلى الله عليه و سلم – و الذي أكرمه بامتنانه قبل ميلاده و خلال مسيرة حياته و حتى بعد وفاته ،وما أعده الرحمن من نعم لرسول الأنام في الدار الآخرة، و ذلك هو المحور الرئيس في بحثنا هذا المعنون بـ " امتنان الرحمن على رسول الأنام .. سورة الضحى نموذجًا ".

مشكلة البحث :

لما كانت نعم الله كثيرة ، لا تعد و لا تحصى ، أردت في هذا البحث إدراك امتنانه – جل و علا – على رسوله الكريم ، و تركيز بؤرة الضوء على ما خصَّه الرحمن – جل و علا – به (صلى الله عليه و سلم) ، و ذلك بعد تصنيف نعم الله – جل و علا – من حيث خصوصيتها و عموميتها ، و بيان امتنانه على حبيبه محمد (صلى الله عليه و سلم) ، و قد اتخذت سورة (الضحى) كنموذج ، لأسباب تم تبيانها في موضعها من البحث ، و لما لها من خصوصية في الفضل و سبب النزول و الأثر ، كما أردت بيان مكانة رسول الأنام (صلى الله عليه و سلم) عند الرحمن من خلال امتنانه عليه و تفضله، و الوقوف على سر من أسرار هذه المكانة ، لذا كان اجتهادنا في البحث و الله من وراء القصد .

منهج البحث : (**الوصفي و التاريخي**) :

استعنت بالله تعالى في هذا البحث مستخدمًا المنهج الوصفي ، كمنهج بحثي من مناهج البحث العلمي ، و رأيته الأنسب لهذا البحث لملائمة أدواته لمشكلة البحث ، كما أنني استخدمت المنهج التاريخي ، بما أنني تناولت فترات متنوعة من حياة الرسول (صلى الله عليه و سلم) و ما أعده الرحمن له قبل ميلاده و أثناء حياته و بعد وفاته (صلى الله عليه و سلم) .

هدف البحث :

للبحث هدف عام : و يتمثل في تصنيف نعم الله تعالى من حيث عموميتها و خصوصيتها وصولًا إلى ما خص به – جل و علا – رسول الأنام (صلى الله عليه و سلم) .

و هدف الخاص : يتمثل في امتنان الرحمن على رسول الأنام (صلى الله عليه و سلم) ، و الوقوف جاهدًا على جماليات ما أنعم به الله عزوجل من فيوضات ومنح

وامتنان على نبيه المصطفى من خلال سورة الضحى أنموذجا .

أسئلة البحث و فرضياته :

١- ما المقصود بالامتنان لغة و اصطلاحًا؟

٢- ما المقصود بامتنان الرحمن ؟

٣- كيف منَّ الله – جل و علا – على الإنسان من الكتاب و السنة ؟

٤- ما امتنان الرحمن على رسول الأنام ؟ و كيف ؟

٥- لماذا "سورة الضحى أنموذجًا " ؟

وللإجابة على هذه الأسئلة ، كان علينا طرح محاور البحث من خلال خطته – والذي ستتكفل صفحات هذه الدراسة المتواضعة في تجلية وإظهار ملامح كل محور وهذاهوغاية الغايات فى ميدان الدرس القرآنى .

المحور الأول: وبدءا نتحدث عن المحور الاول ماالمقصود بالامتنان

المحور الأول : المقصود بالامتنان : و فيه مطلبان ، هما :

المطلب الأول : تعريف (الامتنان) لغةً و اصطلاحًا .

المطلب الثاني : المقصود بامتنان الرحمن جل و علا .

المطلب الأول : تعريف (الامتنان) لغةً و اصطلاحًا ، و فيه سأتناول تعريف لفظة (الامتنان) في اللغة و الاصطلاح ، كما يلي :

أولًا : معنى (الامتنان) لغة :

حيث تناولت التعريف المعجمي للفظة (امتنان) كما ورد في مادتها بأكثر من معجم عربي ، و قد ورد عن تعريف و معنى (امتنان)المعجمي ، الآتي :

١. امتِنان : (اسم): مصدر امْتَنَّ، و نقول: ما هَذَا الامْتِنانُ بِما قَدَّمْت ! : تَعْدادُ ما قَدَّمْتَ مِن فَضْلٍ، وَجَّهَ لَه رِسالَةَ شُكْرٍ وَامْتِنانٍ: شُكْرٍ وَفَضْلٍ وَعِرْفانٍ بِالجَمِيلِ بِبالِغِ الامْتِنانِ، اعترافٌ بالجميل ، عكسه جحود بكلّ **امتنان** أقدِّم لك جزيل شكري ، عبّر عن امتنانه لصديقه : شكره .

امْتَنَّ : (فعل): **امتنَّ** على /**امتنَّ** لـ يمتن ، **امْتَنِنْ** / **امْتَنَّ** ، امتناناً ، فهو مُمْتَنّ ، والمفعول مُمتنّ عليه

- **وامْتَنَّ** عَلَيْهِ بِما صَنَعَ: عَدَّدَ لَهُ ما قَدَّمَهُ مِنَ الخَيْرِ، و**امْتَنَّ** عَلَيْهِ بِهَدِيَّةٍ: أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِهَا، **امْتَنَّ** صاحِبَهُ: بَلَغَ مَمْنُونَهُ ، أَيْ أَقْصى ما عِنْدَهُ، ولك منِّي كلّ العرفان والامتنان: لك منِّي العرفان والشكر، و**امتنَّ** له: شكره أنا ممتنٌّ لك.

(المعجم : معجم المعاني الجـــامع). [١]

١- **امْتِنـــــانٌ:** (م ن ن) مـــــصدر (امْتَنَّ)، ما هَـــذَا الامْتِنـــانُ بِمـــا قَدَّمْت !: تَعْدادُ ما قَدَّمْتَ مِن فضلٍ

٢- وَجَّهَ لَه رِسالَةَ شُـــكْرٍ وَامْتِنـــانٍ : شُكْرٍ وَفَضْلٍ وَعِرْفانٍ بِالجَمِيلِ . :- بِبالِغِ الامْتِنانِ. (المعجم : الغني) . [٢]

٣- **امتِنان:** مصدر امتنَّ على / امـــتنَّ لـــ، واعترافٌ بالجميـــل، عكـــسه جحود :- بكلّ **امتنان** أقـــدِّم لـــك جزيل شكري، - عبّر عن امتنانـــه لصديقه: شكره .(المعجـــم :اللغـــة العربية المعاصر). [٣]

٤- و إمتن - امتنانا ، وإمتن عليه بما صنع : عدد له ما فعلـــه لـــه مـــن الخير، وإمتن عليه بكذا : أنعم عليه به، وإمتنـــه بلـــغ « ممنونـــه »، وهو أقصى ما عنـــده. المعجـــم : الرائد. [٤]

<u>ثانيًا : الامتنان اصطلاحًا :</u>

و هو حمد الله تعالى و شكره علـــى عظيم نعمه و عطاياه بالقول و الفعل علـــى حدٍ سواء ، و هو فضيلة الشكر والامتنـــان والاعتراف بالجميل، على القليل والكثير، من الفضائل والأخلاق والمشاعر الإنسانية النبيلة التي أكدت وحثت عليها الأديـــان والثقافـــات المختلفة، لما لها من أهمية في حياة الإنسان والمجتمع ، وللشكر درجات وأشكال متعددة، فهناك شكر لله تعالى وشكر للوالدين وشـــكر للناس، قال تعالى: «لئن شكرتم لأزيـــدنكم» (سورة إبراهيم: آية ٧)، وشكر الناس مـــن شكر الله، قال رسول الله صـــلى الله عليـــه وسلم في الحديث الصحيح: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»(٥) ، وكان شكر الله، من وصايا الرسول الكريم لأصحابه رضوان الله عليهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : " ...لا تدعنفي دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشـــكرك وحسن عبادتك " (٦)

وشكر الإنسان للنعمـــة والإحـــساس دائمًـــا بفـــضل الله تعـــالى، وممارســـة الامتنان للآخرين، لا يكون بالقول فقط، بـــل هو عبادة لله تعالى تكون أيـــضا بمـــساعدة الضعفاء والمحتـــاجين وقـــضاء حـــوائجهم وتفريج همومهم وإدخـــال الـــسرور علـــيهم والمشاركة في صنائع المعروف وأعمال البر والخير ، وعلى الرغم من أن كلمة الـــشكر لا تكلف الإنسان شيئًا، إلا أن الـــبعض قـــد يضن بها في مقابل ما يقدم لهم من خـــدمات ومنافع .

ثانيًا : المقصود بامتنان الرحمن :

أي تفضله على خلقه بالنعم و المنح و العطايا ، فيقول–جل وعلا–:{أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ..}[لقمان:٢٠] بل أن نعم الله علينا لا تعد و لا تحصى، قال تعالى:{وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم:٣٤]، كما وردت في سورة النحل ولكن بخاتمة رحيمة، قال –تعالى–:{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل:١٨]،أي أن كل ما فيه الإنسان إنما هو نعمة ومنة من الحنّان المنّان لا تقبل العدّ و الإحصاء، وما كان الله ليعطي أحدًا من خلقه لمقابلٍ نظير عطائه سبحانه وهو غني عن العالمين، ولفظة (عطاء) تكررت في أكثر من موضع بآيات الذكر الحكيم، والله –تعالى– يزد في نعمة وعطاياه متى يحمده المؤمن، ويشكر فضله عليه ، فيقول تعالى : {لئن شكرتم لأزيدنكم} [إبراهيم :٧].

ومن هنا يكون امتنان الرحمن على الإنسان محبةً له وتفضلًا منه، وتكريم يزيد بشكر الإنسان وحمده ، و ينقص بجحوده و إنكاره، وهذا التفضل إنما يعد تكرمًا من الله على عبده هذا، نتيجة لفعلٍ منه أو تطلعًا لمكانة يرتقيها بهذا الفضل، وعلى هذا فإن النعم والعطايا منها العام ومنها الخاص، كما سنعرض في المحور الثاني .

المحور الثاني : امتنان الله تعالى على الإنسان من الكتاب و السنة :

المطلب الأول : عمومية نعم الله تعالى .

المطلب الثاني : خصوصية نعم الله تعالى .

أولًا : عمومية نعم الله تعالى :

إن الله تعالى قد أنعم على مخلوقاته بكثير من النعم، وخصنا نحن (آدم وذريته) بما يميزنا على سائر الخلق من نعم ، كما قال –جل وعلا– في سورة التين:{و لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (٤)} بل وقد أقسم – جل وعلا– على ذلك تكريمًا له وتعظيمًا لما هو مقدر له، ولفظة (الإنسان) هنا إنما هي لعموم بني آدم لا تخص ولا تميز فصيل عن آخر، إنما تخص هذا الكائن الذي لُقِّبَ بهذا اللقب تميزًا له كخلقٍ من خلق الله، ويأتي القسم بالتين والزيتون و طور سينين والبلد الأمين تبجيلًا وتعظيمًا لهذا الخلق، أوليست هذه نعمة لعموم البشر؟

إن الله –تعالى– خلق آدم (عليه السلام) وهو أعلم بما سيكون من اختلاف ذريته في الجنس واللغة والدين وغير ذلك من شتى صنوف الاختلاف–سبحانه العليم الحكيم– ورغم ذلك فقد مَنَّ عليهم أجمعين

بنعم ثابتة ومشتركة بينهم، كنعمة الخلق على سبيل المثال، والتي تتجلى قدرته –سبحانه– فيها، كما يفصلها في سورة (المؤمنون) فيقول –تعالى–:{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ(١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ(١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(١٤)} و التي جاء الطب في علومه ليتحدث عن مراحل تكوّن الجنين في أواخر القرن العشرين المنصرم كاكتشاف علمي ، و قد فصّله الله تعالى في قرآنه الكريم ، الذي نزل على حبيبه المصطفى قبل ألف و أربعمائة عام .

وفيما يلي سنسرد الآيات التي ورد فيها لفظة (الإنسان) لشمولها وعموميتها كما جاءت في الذكر الحكيم، وما تحمله من نِعَمٍ أو وصف أو دلائل على قدرته – جل و علا – قال تعالى :

– "يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا " ﴿٢٨النساء﴾ .

– "وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا " ﴿١٢يونس﴾ .

– "وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ " ﴿٩هود﴾ .

– " إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ " ﴿٣٤إبراهيم﴾

– "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ " ﴿٢٦الحجر﴾ .

– " خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ " . (النحل ٤ ﴾ .

– "وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا " ﴿الإسراء ١١ ﴾ .

– "فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا " ﴿الإسراء ٦٧ ﴾ .

– "وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ " ﴿الإسراء ٨٣ ﴾ .

– "إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا " (الإسراء ١٠٠ ﴾ .

– " وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا " ﴿الكهف ٥٤ ﴾ .

– "وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا " (مريم ٦٦ ﴾ .

– "أَوَلَايَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا " (مريم ٦٧ ﴾ .

– "خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ " (الأنبياء ٣٧ ﴾ .

– " إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ " (الحج ٦٦ ﴾ .

– " وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ " (المؤمنون ١٢ ﴾ .

- " وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا " (العنكبوت ٨ ﴾ .
- "وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ " (لقمان ١٤ ﴾ .
- " وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ " (السجدة ٧ ﴾ .
- " وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا " (الأحزاب ٧٢ ﴾ .
- "أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ " (يس ٧٧ ﴾ .
- "وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ " (الزمر ٨ ﴾ .
- " فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا " (الزمر ٤٩ ﴾ .
- " لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ " (فصلت ٤٩ ﴾ .

ويتجسد امتنان الرحمن و تفضله على بني آدم في قوله –تعالى–:{أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(١٠)}[البلد:٨–١٠]. ويقول الإمام الحافظ ابن كثير – رحمة الله عليه و رضوانه –في تفسيره : [أى يبصر بهما فانظر بعينيك إلى ما أحللت لك وإن رأيت ما حرمت عليك فأطبق عليهما غطاءهما ، (ولساناً) أي : ينطق به ، فيعبر عما في ضميره ،(وشفتين) يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام ، وجمالًا لوجهه وفمه، (وهديناه النجدين) قال سفيان الثوري ، عن عاصم ، عن زر ، عن عبد الله – هو ابن مسعود– (وهديناه النجدين) قال : الخير والشر ، وكذا روي عن علي ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبي وائل ، وأبي صالح ، ومحمد بن كعب ، والضحاك ، وعطاء الخراساني في آخرين .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرني ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن سنان بن سعد ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله – ﷺ–: " هما نجدان ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير " .

تفرد به سنان بن سعد – ويقال : سعد بن سنان – وقد وثقه ابن معين ، وقال الإمام أحمد والنسائي والجوزجاني : منكر الحديث، وقال أحمد : تركت حديثه لاضطرابه ، وروى خمسة عشر حديثا منكرة كلها ، ما أعرف منها حديثا واحدا ، يشبه حديثه حديث الحسن – يعني البصري – لا يشبه حديث أنس.

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن علية ، عن أبي رجاء قال : سمعت الحسن يقول: (وهديناه النجدين) قال : ذكر لنا أن نبي الله – ﷺ – كان يقول " : يا أيها الناس ، إنهما النجدان ، نجد الخير

ونجد الشر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير " .

وكذا رواه حبيب بن الشهيد، ويونس بن عبيد، وأبو وهب، عن الحسن مرسلا، وهكذا أرسله قتادة

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عصام الأنصاري، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا عيسى بن عقال عن أبيه، عن ابن عباس في قوله:(وهديناه النجدين) قال: الثديين .

وروي عن الربيع بن خثيم وقتادة وأبي حازم، مثل ذلك . ورواه ابن جرير عن أبي كريب، عن وكيع، عن عيسى بن عقال، به . ثم قال: والصواب القول الأول.

ونظير هذه الآية قوله –تعالى–:{إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا(٢) إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا (٣) }[الإنسان:٢–٣]

و عن ابن عباس – ﷺ– قال: قال رسول الله (ﷺ): (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ) [٨]

و قد أورد الله تعالى في سورة النحل الكثير من النعم و المنن التي منَّ بها على الإنسان حيث يقول – جل و علا –:{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ(١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ(١٦)أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) }[النحل:٣–١٨].

يُعدد – جل و علا – نعمه و أفضاله علينا جميعًا سبحانه الحنّان المنّان ، ثم يبلغنا بعد هذا التعدد أننا مهما حاولنا حصر هذه النعم علينا ، لن نبلغ عددها ، و لن نستطع حصرها ، مؤكدًا بأداة التوكيد و النصب (إن) .

ثانيًا : خصوصية نعم الله تعالى :

إن كان امتنان الرحمن – جل و علا – يتمثل في تفضله على أحدٍ من خلقه ، فهذا التفضل إنما يعد تكرمًا من الله على عبده هذا ، نتيجة لفعلٍ منه أو تطلعًا لمكانة يرتقيها بهذا الفضل ، فالله تعالى ساوي بين الناس في نعم ثابتة عامة كنعمة الخلق ، و لكنه – جل و علا – لم يساويهم في الدين مثلًا ، و ساوى بينهم في نعمة الرزق كنعمة ثابتة ، و لكنه ميز بينهم في قدر هذا الرزق، فكان بينهم بدرجات ، و كذلك العلم و غيره من النعم ، و هذا واضح جلي في قوله تعالى: {**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** (١٣)}[الحجرات: ١٣].

إذًا امتنان الرحمن يتمثل في اختصاصه بفضل أو بنعمة لأحدٍ من خلقه كالأنبياء و الرسل دون غيرهم من الناس ، و أن هناك تفاوت بين حظوظ البشر في نعم الله تعالى ، مما يبين لنا خصوصية النعم و المنح الإلهية لبعضهم دون بعض ، و من أمثلة ذلك في خصوصيته – جل و علا – ببعض النعم و المنح لصفوةٍ من الناس هم الأنبياء و الرسل ، خصهم بها لدعمهم و تثبيتهم من ناحية ، و لتكون حجة قوية على أقوامهم ، فيميزون و يفقهون أن هذا ليس من عند بشر و إنما هو من عند الله تعالى فيؤمنوا به و بما جاء على لسان رسلهم ، و نرى في الذكر الحكيم أكثر من موضع لذلك ، كقوله –تعالى– لسيد موسى في سورة النازعات {**اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ** (١٧)**فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ** (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ(٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ(٢٥)} أي إذهب إلى فرعون الطاغية ، و الذي عاث في الأرض فسادًا ، و اهده للصراط المستقيم و الحق المبين ، و إن أنكر قولك فأره من آياتنا مما أعطيناك لتكون عليه حجة ، و لك دعمًا و أمنًا ، و كما ورد في تفسير ابن كثير (رحمه الله) قوله :" يعني فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قوية ودليلًا واضحًا على صدق ما جاءه به من عند الله ".

و ورد في تفسير القرطبي – رحمة الله عليه ورضوانه– في تفسير قوله تعالى

{فأراه الآيــة الكبــرى (٢٠)} مــن ســورة النازعات، قوله:"(فأراه الآيــة الكبــرى) أي العلامة العظمى وهي المعجزة وقيل: العصا. وقيل: اليد البيضاء تبرق كالــشمس. وروى الضحاك عن ابن عباس: الآية الكبرى قــال العصا. الحسن: يده وعصاه. وقيــل: فلــق البحر. وقيل: الآية : إشارة إلى جميع آياتــه ومعجزاته.

فنرى جليًا النعمة التي خص الله بهــا نبيه موسى – عليه السلام – سواء كانت اليد أو العصا أو انشقاق البحر أو بالإشارة إلــى جميع آياته و معجزاته ، لتكون حجةً له على فرعون و قومه ، و ثباتًا و دعمًا لموســى – عليه السلام – و أهلــه ، و التــي نــسميها معجزة ، لأنها خرقًا واضحًا لكــل قــوانين الطبيعة التي يعرفها الإنسان ، و آية لا تكن إلا بأمرٍ من الله – جل و عــلا – وحــده لا شريك له ، و لا تكن لبشر قولًا أو فعلًــا ، و لذلك نرى أن سحرة فرعون في هذا المشهد المهيب أدركوا ذلك ، و تفقهوا حقيقة الأمر ، فخروا ساجدين لله رب العــالمين ، معلنــين إيمانهم به لما شاهدوا قدرته – جل و علا – على يد موسى – عليــه الــسلام – ، أمــا فرعون الطاغية أنكر معاندًا رغم فــساده و إفساده ، فما كان مــن رب العــالمين إلا أن يجعله عبرة للعالمين ، جزاءً وفاقا بما أثمت يداه .

إن الله –تعالى– ميّز بين الناس فــي نعمه و عطاياه، والله – سبحانه وتعــالى – جعل الاختلاف بين البشر معيــارًا للعطــاء والمنح، فهم يختلفون في درجات الرزق، كما يقول تعالى:{وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِــرَادِّي رِزْقِهِــمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَــةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}[النحل: ٧١].

و يختلفون أيضًا في درجات العلــم ، كما يبين – جل و علا – في قولــه:{ فَبَــدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِــن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّــهُ ۚ نَرْفَــعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ }[يوسف:٧٦]، و قال أيضًا في سورة المجادلة :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِــي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيــلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِــنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) }.

و قال – صلى الله عليه وسلم – " أن موســى قــام خطيبًا في بين إسرائيل، فــسئل أي النــاس أعلم؟ قال: أنا. فعتب الله عليه، إذ لــم يــرد العلم إليه. فأوحى الله إليــه، أن لــي عبــدًا بمجمع البحرين هــو أعلــم منــك "(رواه الشيخان والترمذي) [٩] ، و غير ذلك مــن النعم التي ميز الله – جل و علا – في مقدار

عطائها بين البشر ، و لا شك أن الاختلاف مبدأ إلهي كوني ، كما قال رب العزة في سورة الأنعام :{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥) }، و قال الإمام الحافظ ابن كثير : " قوله تعالى (و رفع بعضكم فوق بعض درجات) أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق ، والمحاسن والمساوئ ، والمناظر والأشكال والألوان ، وله الحكمة في ذلك ، كقوله : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا)[الزخرف : ٣٢] ، وقوله تعالى : (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) [الإسراء : ٢١] " . (١٠)

المحورالثالث : امتنان الرحمن على رسول الأنام : و فيه ثلاث مطالب ، هي :

المطلب الأول : التعريف بمحمد بن عبد الله (ﷺ).

المطلب الثاني : ما خصَّ الله به محمد بن عبدالله (ﷺ) من نعم .

المطلب الثالث : أثر ما خصَّ الله به محمد بن عبدالله (ﷺ) من نعم .

أولًا : التعريف برسول الأنام محمد بن عبد الله (ﷺ) :

من هو النبي محمد رسول الله (ﷺ)؟

هو حبيب الرحمن و سيد الأنام و خاتم المرسلين (ﷺ) الصادق الأمين ، و فيما يلي سنذكر بعض المعلومات من خلال تقديم سيرة ذاتية تعريفية مصغرة لرسول الأنام محمد بن عبد الله (ﷺ) :

اسمه و نسبه :محمّد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصي ، بن كلاب ، بن مرّة ، بن لؤي ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك ، بن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة ، بن إلياس ، بن مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان.

وقد رُوِيَ عَنْ رسول الله (صلَّى الله عليه و سلم) أنه قال:"إِذَا بَلَغَ نَسَبِي إِلَى عَدْنَانَ فَأَمْسِكُوا "(١١)

أشهر ألقابه: أحمد ، الأمين ، المصطفى ، السراج المنير ، البشير النذير.

كنيته: أبو القاسم.

أبوه: عبد الله ، و قد مات و النبي (ﷺ) حمل في بطن أمه ، و قيل : مات و له من العمر سنتان و أربعة أشهر.

أمّه : آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، و قد ماتت و عمره (ﷺ) ثمان سنوات .

ولادته : ولد سيد المرسلين (ﷺ)بشعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان، ويوافق ذلك عشرين أو اثنين وعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١ م حسبما حققه العالم الكبير محمد سليمان ــ المنصورفورى ــ رحمه الله.(١٢)

محل ولادته : مكة المكرمة.

بعثته: بُعث (ﷺ) نبيًّا في سنّ الأربعين، أي في ٢٧ شهر رجب عام (٦١٠) للميلاد.

مدة نبوته: ٢٢ سنة و ٧ اشهر و ٣ أيام ، قضى ١٣ سنة منها في مكة المكرمة و ٩ سنوات و أشهر في المدينة المنورة.

هجرته: خرج (ﷺ) من مكة المكرمة مهاجراً إلى المدينة المنورة في الليلة الأولى من شهر ربيع الأول ودخل المدينة المنورة في ١٢ من الشهر نفسه.

نقش خاتمه: محمّد رسول الله.

زوجاته: خديجة بنت خويلد ، سُودة بنت زمعة ، عائشة بنت أبي بكر ، حفصة بنت عمر ، زينب بنت خزيمة ، أم سلمة بنت أبو أمية المخزومي ، جويرية بنت الحارث ، أم حبيبة بنت أبي سفيان ، صفية بنت حي بن أخطب ، ميمونة بنت الحارث ، زينب بنت جحش ، خولة بنت حكيم.

وفاته: الضحي من يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ، وقد تم له (ﷺ) ثلاث وستون سنة وزادت أربعة أيام.

سبب الوفاة : سم المرأة اليهودية ، فقد مرض النبي (ﷺ) على أثر ذلك السم القاتل و توفي في هذا المرض .

صفاته (ﷺ): أمير المؤمنين علي (كرم الله وجهه) يصف الرسول المصطفى (ﷺ):

عن علي بن أبي طالب (ﷺ) أنه قَالَ:" كَانَ رَسُولُ اللَّه(ﷺ) أَبْيَضَ مُشْرَبًا بَيَاضُهُ حُمْرَةً، أَهْدَبَ الْأَشْفَارِ، أَسْوَدَ الْحَدَقَة، لَا قَصِيرٌ وَلَا طَوِيلٌ وَهُوَ إِلَى الطُّولِ أَقْرَبُ، لَا جَعْدٌ وَلَا سَبِطٌ، عَظِيمُ الْمَنَاكِبِ، فِي صَدْرِه مَسْرُبَةٌ، شَثْنُ الْكَفِّ وَالْقَدَمِ، كَأَنَّ عَرَقَهُ اللُّؤْلُؤُ، إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ كَأَنَّهُ يَمْشِي فِي صَعَدٍ، لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ (ﷺ).(١٣)

ورُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ (ﷺ) أيضًا أنه قال:" كَانَ النَّبِيُّ (ﷺ) ضَخْمَ الرَّأْسِ، عَظِيمَ الْعَيْنَيْنِ، هَدِبَ الْأَشْفَارِ، مُشْرَبَ الْعَيْنَيْنِ حُمْرَةً ، كَثَّ اللِّحْيَةِ، أَزْهَرَ اللَّوْنِ، شَثْنَ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ، إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ كَأَنَّمَا يَمْشِي فِي صَعَدٍ، وَإِذَا الْتَفَتَ الْتَفَتَ جَمِيعًا.

مدفنه الشريف: في بيته في المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة.

شعاع من سيرته المباركة: رُوِيَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ علي بن أبي طالب (ﷺ) أنه قَالَ:" إِنَّ يَهُودِيًّا كَانَ لَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) دَنَانِيرُ فَتَقَاضَاهُ. فَقَالَ لَهُ ــ أي الرسول ــ : " يَا يَهُودِيُّ مَا عِنْدِي مَا أُعْطِيكَ". قَالَ: فَإِنِّي لَا أُفَارِقُكَ يَا مُحَمَّدُ حَتَّى تَقْضِيَنِي

فَقَالَ:" إِذاً أَجْلِسُ مَعَكَ". فَجَلَسَ مَعَهُ حَتَّى صَلَّى فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ الظُّهْرَ وَ الْعَصْرَ وَ الْمَغْرِبَ وَ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ وَ الْغَدَاةَ، وَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) يَتَهَدَّدُونَهُ وَ يَتَوَاعَدُونَهُ . فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) إِلَيْهِمْ فَقَالَ:" مَا الَّذِي تَصْنَعُونَ بِهِ " ؟! فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ يَهُودِيٌّ يَحْبِسُكَ! فَقَالَ (ﷺ): " لَمْ يَبْعَثْنِي رَبِّي عَزَّ وَ جَلَّ بِأَنْ أَظْلِمَ مُعَاهِدًا وَ لَا غَيْرَهُ " .

فَلَمَّا عَلَا النَّهَارُ قَالَ الْيَهُودِيُّ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَشَطْرُ مَالِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَمَا وَاللَّهِ مَا فَعَلْتُ بِكَ الَّذِي فَعَلْتُ إِلَّا لِأَنْظُرَ إِلَى نَعْتِكَ فِي التَّوْرَاةِ، فَإِنِّي قَرَأْتُ نَعْتَكَ فِي التَّوْرَاةِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَمُهَاجَرُهُ بِطَيْبَةَ، وَلَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ، وَلَا مُتَزَيِّنٍ بِالْفُحْشِ، وَلَا قَوْلِ الْخَنَاءِ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ(ﷺ)، وَ هَذَا مَالِي فَاحْكُمْ فِيهِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَكَانَ الْيَهُودِيُّ كَثِيرَ الْمَالِ .(١٤)

ثانيًا : ما خصَّ الله به محمد بن عبدالله (صلى الله عليه و سلم) من نعم .

إن امتنان الرحمن وما خصَّ به حبيبه رسول الأنام محمد يزيد ويفيض عن حدود بحثنا ودراستنا، وقد جال في ذلك علماء وفقهاء ورجال علم مسلمون وغير مسلمين، فأخرجوا لنا العديد من المصنفات عن الحبيب محمد (ﷺ) متناولين فيها سيرته العطرة ، وحياته الشريفة باستفاضه، أثروا بها المكتبة العربية، ولازال يجتهد الكثيرون في البحث والتنقيب بشتى أدوات البحث العلمي في السيرة النبوية الشريفة، وفي هذا المطلب سوف نبرز منح العاطي والوهاب – جل و علا – لحبيبه محمد (ﷺ) من خلال تصنيفها و تقسمها لثلاث أقسام ، هي :

القسم الأول : ما قبل ميلاده الشريف (ﷺ) .

القسم الثاني : من ميلاده الشريف حتى وفاته(ﷺ) .

القسم الثالث : ما بعد حياته الشريفة (ﷺ) .

و بدايةً نتعرض لامتنان الرحمن على رسول الأنام قبل ميلاده الشريف (ﷺ) ولقد كرم الله (عز وجل) نبيه محمدًا

(ﷺ) تكريمًا لم يكرمه أحدًا من العالمين، فأما تكريم الله –عز وجل– لرسوله (ﷺ) في بداية الخلق: فرفع الله ذكره في الأولين والآخرين ، فما من نبي بعثه الله – تعالى– قبله (ﷺ) إلا وقد أخذ عليه العهد والميثاق إذا ما أدركه رسول الله أن يؤمن به ، وأن ينصره ، قال ربنا سبحانه:**{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ}** [آل عمران: ٨١] .

أراد أخذ الله الميثاق على النبيين ، وأممهم جميعا في أمر محمد (ﷺ) فاكتفى بذكر الأنبياء لأن العهد مع المتبوع عهد على الأتباع ، وهذا معنى قول ابن عباس ، وقال علي بن أبي طالب : لم يبعث الله نبيا ، آدم ومن بعده إلا أخذ عليه العهد في أمر محمد ، وأخذ العهد على قومه ليؤمنن به ولئن بعث وهم أحياء لينصرنه.

قوله: (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم) يعني : محمدا (ﷺ)، (**لتؤمنن به ولتنصرنه**) يقول الله تعالى للأنبياء حين استخرج الذرية من صلب آدم عليه السلام ، والأنبياء فيهم كالمصابيح والسرج ، وأخذ عليهم الميثاق في أمر محمد (ﷺ) قال:(أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري) أي: قبلتم على ذلكم عهدي، والإصر: العهد الثقيل ،(قالوا أقررنا قال الله –تعالى– (فاشهدوا) أي: فاشهدوا أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم ، (وأنا معكم من الشاهدين) عليكم وعليهم، وقال ابن عباس : فاشهدوا ، أي : فاعلموا ، وقال سعيد بن المسيب قال الله تعالى للملائكة فاشهدوا عليهم كناية عن غير مذكور. (١٥)

وزاد الله – تعالى – هذا الميثاق تشريفًا وتعظيمًا حيث شهد عليه سبحانه مع أنبيائه، وبشَّر به الأنبياء السابقين، ففي الحديث الشريف عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ السُّلَمِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) يَقُولُ : «... أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبِشَارَةُ عِيسَى قَوْمَهُ ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ» (مسند أحمد) ، فدعوة سيدنا إبراهيم (عليه السلام) في قوله تعالى : **{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** [البقرة: ١٢٩] ، و يقول الإمام الحافظ بن كثير في ذلك بتفسيره (ويقول تعالى إخبارا عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولا منهم، أي من ذرية إبراهيم ، وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد (ﷺ) رسولا في الأميين إليهم، إلى سائر الأعجمين، من الإنس

والجن، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، عن سعيد بن سويد الكلبي، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي، عن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله (ﷺ):" إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين " . (١٦)

والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره في الناس ، إبراهيم عليه السلام . ولم يزل ذكره في الناس مذكورا مشهورا سائرا حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسبا ، وهو عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، حيث قام في بني إسرائيل خطيبًا ، وقال : **{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}** [الصف: ٦]؛ ولهذا قال في هذا الحديث : "دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ابن مريم " .

وقوله (ﷺ): "ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام " قيل: كان منامًا رأته حين حملت به، وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم ، وكان ذلك توطئة .

و تخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشام ، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلا للإسلام وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها . ولهذا جاء في الصحيحين " : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك " ، وفي صحيح البخاري " وهم بالشام " .

قال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، في قوله : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم)يعني : أمة محمد (ﷺ)، فقيل له : قد استجيبت لك ، وهو كائن في آخر الزمان . وكذا قال السدي وقتادة . (١٧)

و أيضًا من تكريم الله عز وجل لرسوله (ﷺ) قبل مولده ، تسميته محمدًا، فَكَانَتْ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ تُحَدِّثُ أَنَّهَا حِينَ حَمَلَتْ بالرسول (ﷺ) سمعت من يقول لَهَا :(إِنَّكِ قَدْ حَمَلْتِ بِسَيِّدِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَإِذَا وَقَعَ على الْأَرْضِ فَقُولِي: أُعِيذُهُ بِالْوَاحِدِ مِنْ شَرِّ كُلِّ حَاسِدٍ، ثم سَمِّيهِ مُحَمَّدًا ، فَإِنَّ اسْمَهُ فِي التَّوْرَاةِ أَحْمَدُ، يَحْمَدُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ، وَاسْمُهُ فِي الْإِنْجِيلِ أَحْمَدُ يَحْمَدُهُ أَهْلُ

السَّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ وَاسْمُهُ فِي الْقُرْآنِ مُحَمَّدٌ فَسَمِّيهِ بِذَلِكَ) (شعب الإيمان للبيهقي) .

ومن ذلك أيضًا : شرف نسبه: فهو (ﷺ) أشرف الناس نسبا ، ومما ورد في ذلك: قوله سبحانه وتعالى: {وَتَقَلُّبَكَ فِي الساجدين}[الشعراء : ٢١٩] ، قال ابن عباس : أي في أصلاب الآباء ، آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبيًّا (تفسير ابن كثير) ، فهو من أشرف الأنساب ، وأكرم بيوتات العرب ، صانه الله من سفاح الجاهلية ، ونقله من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطاهرة جيلاً بعد جيل ، فاصطفى من ولد إسماعيل كنانة ، ومن كنانة قريش ، ومن قريش بني هاشم فهو (ﷺ) خيار من خيار من خيار، وعن واثِلَة بْنِ الأَسْقَعِ (رضي الله عنه)قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) يَقُولُ: « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِى هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِى مِنْ بَنِى هَاشِمٍ ». [رواه مسلم]

القسم الثاني : من ميلاده الشريف حتى وفاته (ﷺ):

وأما تكريم الله عز وجل لرسوله (ﷺ) في حياته ، فيبدأ منذ لحظة ميلاده وروى ابن سعد أن أم رسول الله (ﷺ) قالت : لما ولدته خرج من فرجي نور أضاءت له قصور الشام. وروى أحمد والدارمى وغيرهما قريباً من ذلك.

وقد روى أن إرهاصات بالبعثة وقعت عند الميلاد، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وخمدت النار التي يعبدها المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت، روى ذلك الطبرى والبيهقى وغيرهما ، وليس له إسناد ثابت، ولم يشهد له تاريخ تلك الأمم مع قوة دواعى التسجيل.

وتصاحبه النعم والبركات حتى في ديار بني سعد بن بكر، حيث تروي حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث ما رأته من خير و يمن و بركات ، حفّه الرحمن – جل و علا – بها ، إذ تقول :

قال ابن إسحاق : (كانت حليمة تحدث : أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء. قالت : وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئًا، قالت : فخرجت على أتان لى قمراء، ومعنا شارف لنا، والله ما تَبِضّ بُقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا، من بكائه من الجوع، ما في ثديى ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه، ولكن كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتانى تلك، فلقد أذَمَّتْ بالركب حتى شق ذلك عليهم، ضعفًا وعجفًا، حتى

قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه، إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده، فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعًا غيرى، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى: والله ، إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعًا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه ، قال : لا عليك أن تفعلى، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه وأخذته،وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره، قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلى، فلما وضعته في حجرى أقبل عليه ثديأي بما شاء من لبن، فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا هي حافل، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريًّا وشبعًا، فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبى حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليمة، لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله إنى لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا وركبت أنا أتانى، وحملته عليها معى، فوالله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شيء من حمرهم، حتى إن صواحبى ليقلن لى: يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك! أرْبِعى علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله ، إنها لهي هي، فيقلن: والله إن لها شأنًا، قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمى تروح علىَّ حين قدمنا به معنا شباعًا لُبَّنًا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم، اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمى شباعًا لبنًا ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفرًا ، قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركت ابني عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا).(الرحيق المختوم صـ ٥٦) .

ثم كانت معجزة (شق الصدر) حيث يقول ابن إسحاق :

(حتى إذا كان بعده بأشهر ، وفي السنة الرابعة من مولده على قول المحققين وقع حادث شق صدره، روى مسلم عن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه

فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طَسْت من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَه ــ أي جمعه وضم بعضه إلى بعض ــ ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ــ يعنى ظئره ــ فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو مُنْتَقِعُ اللون ــ أي متغير اللون ــ قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره).(المرجع السابق)

و من نعم الحنّان المنّان – جل و علا – على نبيه أيضًا ، رفع ذكره في الدنيا والآخرة ، فلا يذكر الله تعالى إلا ذكر معه رسول الله (ﷺ) ، وصدق الله تعالى حيث قال : {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}، وعَنْ أَبِي سَعِيد (ﷺ) عَنْ رَسُولِ اللَّه (ﷺ) أَنَّهُ قَالَ: (أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ رَبِّي وَرَبَّكَ يَقُولُ: كَيْفَ رَفَعْتُ ذِكْرَكَ؟ قَالَ: اللَّهُ أَعْلَمُ ، قَالَ: إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعِي) (مجمع الزوائد للهيثمي). فقرن الله تعالى اسمه باسمه في كثير من الأمور ، فلا يقبل إسلام امرئ حتى يشهد له بالرسالة بعد أن يشهد لربه بالوحدانية ، قال حسان بن ثابت (ﷺ) :

وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيّ إلى اسمه *** إذا قَالَ في الخَمْسِ المُؤذِّنُ أشْهَدُ

وشقّ لهُ من اسمه ليجلهُ *** فذو العرشِ محمودٌ ، وهذا محمدُ

فهو (ﷺ) يذكر بذكر ربه في الشهادتين ، وفي الآذان والإقامة ، وفي الخطب ، وفي القرآن الكريم ، فقد قرن الله تعالى طاعته بطاعته ، فقال :{مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا}[النساء:٨٠]، وكان ابْنُ عَبَّاس (ﷺ) يقول: ثَلَاثُ آيَات نَزَلَتْ مَقْرُونَةً بِثَلَاث آيَات لَا يُقْبَلُ وَاحِدَةٌ منْهَا بِغَيْرِ قَرِينَتِهَا، أَوَّلُهَا:{ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [البقرة:٤٣]، فَمَنْ صَلَّى وَلَمْ يُؤَدِّ الزَّكَاةَ لَا تُقْبَلُ مِنْهُ الصَّلَاةُ .وَالثَّانِي قَوْله تَعَالَى : {أَن اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ}[لقمان:١٤] ، فَمَنْ شَكَرَ اللَّهَ وَلَمْ يَشْكُرْ وَالِدَيْهِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ وَالثَّالِثُ قَوْله تَعَالَى:{وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ} {النساء: ٥٩] ، فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَلَمْ يُطِعْ الرَّسُولَ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ.

وكذلك قرن الله تعالى بيعته ببيعته ، فقال سبحانه : { إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ} [الفتح:١٠] ، وجعل طاعته علامة للفوز بالجنة ، فقال تعالي:{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٧١] ، إلى غير ذلك من الآيات، وفي الحديث عَنْ أَبي هريرةَ (ﷺ) أنَّ رَسُول الله (ﷺ) قَالَ:(كُلُّ أُمَّتِي يَدخُلُونَ الجَنَّةَ إلاَّ مَنْ أَبَى) قيلَ : وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُول الله ؟ قَالَ : (مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى) (رواه البخاري) ، وحديث عُمَر (ﷺ)

حين جَاءَ إِلَى الْحَجَرِ الأَسْوَدِ فَقَبَّلَهُ، وقَالَ: (إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ، وَلَوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ (ﷺ) يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ) (رواه البخاري) ، فطاعة الله تعالى لا تتحقق ولا تتأكد إلا بطاعة رسوله الكريم (ﷺ) .

كذلك من تكريم الله لنبيه (ﷺ) أن جعل حبه من الإيمان بالله ، بل جعل الحق -سبحانه وتعالى- محبته من محبة الرسول (ﷺ)، واتباعه (ﷺ) علامة على المحبة ، فقال تعالى:{ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [آل عمران:٣١] ، فمحبته (ﷺ) فرض لازم على كل مسلم ، ففي حديث : أَنَسٍ(رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (ﷺ):(لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ والِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (متفق عليه) .

بل إن الإيمان لا يكتمل في قلب العبد حتى يقدم حب النبي (ﷺ) على حب نفسه وولده والناس أجمعين بل ويقدمه على حب نفسه التي بين جنبيه ، فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ هِشَامٍ (رضي الله عنه) قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ (ﷺ)وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ مِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ):«لاَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ » فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : فَإِنَّهُ الآنَ وَاللَّهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ): « الآنَ يَا عُمَرُ».[رواه البخاري]

ويكفي من أحب النبي (ﷺ) فضلا وشرفا أنه يحشر بصحبة حبيبه (ﷺ) يوم القيامة، وهذا فضل ما بعده فضل، وكرم ما بعده كرم، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا وَالنَّبِيُّ (ﷺ) خَارِجَانِ مِنَ الْمَسْجِدِ فَلَقِيَنَا رَجُلٌ عِنْدَ سُدَّةِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَتَى السَّاعَةُ ؟ قَالَ النَّبِيُّ (ﷺ): « مَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟» فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ ، ثُمَّ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صِيَامٍ، وَلاَ صَلاَةٍ، وَلاَ صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ:«أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ».[رواه البخاري] .

ومن أسمى آيات التكريم للرسول (ﷺ) أنه سبحانه وتعالى لم يخاطبه باسمه المجرد كما خاطب سائر الأنبياء قبله ، فقد كان كل نبي يخاطبه ربه باسمه المجرد ، مثل قوله تعالى { يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [البقرة ٣٥]، { يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران ٥٥] ، { يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ} [هود ٤٨]، { يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [القصص ٣٠]، { يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} [مريم ١٢] ، {يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ } [طه: ١١، ١٢] ، {يَا إِبْرَاهِيمُ

قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الصافات: ١٠٤، ١٠٥] ، {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا } [مريم: ٧]

أما خاتمهم محمد (ﷺ) فكان الخطاب إليه باللقب الدال على تكريمه وتعظيمه بعزّ النبوة وشرف الرسالة، قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب: ٤٥] ، وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [المائدة: ٦٧] ، ليس هذا فحسب، بل إن الله عز وجل نهى الأمة أن تناديه باسمه كما كانت الأمم تنادي أنبياءهم بأسمائهم، وتوعد من يخالف ذلك بالعذاب الأليم ، فقال تعالى: {لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور ٦٣] .

كذلك من تكريم الله لنبيه (ﷺ) وجوب التأسي به (ﷺ) ، فقال تعالي : {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}[الأحزاب:٢١] ، وهذه الآية أصل كبير في وجوب التأسي برسول الله (ﷺ) في أقواله وأفعاله وأحواله ، فهلا اقتدينا به وتأسينا بشمائله (ﷺ) ؟!

كذلك من تكريم الله لنبيه (ﷺ) أن الله (عز وجل) قد صلَّى عليه في كتابه العزيز ، وصلت عليه ملائكته ، وحثَّ المؤمنين على الصلاة عليه ، فقال سبحانه: { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[الأحزاب:٥٦]

كذلك من تكريم الله لنبيه(ﷺ): أن الله تعالى تولى الدفاع عنه(ﷺ) بنفسه دون غيره من الأنبياء ، فقد كان كل نبي يتهمه قومه باتهامات باطلة فيدفع ذلك بنفسه، فهذا نوح (عليه السلام) اتهمه قومه بالضلال كما يحكي القرآن، فيقول:{ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[الأعراف:٦٠] فيدفع ذلك عن نفسه قائلا:{يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف:٦١– ٦٢]

وهذا هود (عليه السلام) اتهمه قومه بالسفاهة والجنون والكذب إذ قالوا له : {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [الأعراف: ٦٦] فدافع عن نفسه قائلا : {يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ } [الأعراف :٦٧، ٦٨]

أما خاتم الأنبياء (ﷺ) فكلما رماه قومه بالأباطيل وافتروا عليه الأكاذيب تولى الله تعالى الدفاع عنه ، فقد اتهمه قومه بأنه شاعر { بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ}[الأنبياء ٥] فرد الحق عليهم في قوله تعالى : { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} [يس:٧٠]

وقالوا: إنه كاهن ، يتكهن بما تمليه عليه الشياطين ، فرد الله تعالى عليهم في قوله: {فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ} [الطور ٢٩] ، ويأتي القسم من الله تعالى– وما أعظمه من قسم – للدفاع عن النبي (ﷺ) ولتأكيد صدق الوحي والقرآن ودحض اتهاماتهم وافتراءاتهم في قوله تعالى:{فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ(٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ(٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ(٤٢) تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) } [الحاقة ٣٨-٤٣].

وقالوا : إنه ساحر تارة ، فرد عليهم تعالى في قوله :{ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ } [الذاريات: ٥٢] ، وتارة أخرى قالوا: إنه مسحور ، فرد الله تعالى عليهم في قوله :{وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٩) } [الفرقان ٨-٩] ، قالوا: إنه مجنون ، فرد الله سبحانه وتعالى عليهم في قوله :{أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} [المؤمنون ٧٠]، وقوله تعالى : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) } [القلم ١-٤] .

واتهموه بالضلال والانحراف فردَّ الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله : {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤)} [النجم: ١ – ٤] ، بل إنه سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظه وحمايته من الْمُشْرِكِينَ ، فقال تعالى :{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [المائدة: ٦٧]

كذلك من تكريم الله لنبيه (ﷺ) ما جاء في عموم رسالته (ﷺ) ، فلم تقتصر على جيل دون جيل أو قوم دون قوم ، فهي رسالة عامة للناس جميعًا ، **فإن الله (عز وجل) بعث كل نبي لأمته خاصة** وبعث نبينا (ﷺ) للناس **عامة** ، وقد صرح القرآن الكريم **بذلك ، فقال تعالي : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ**

لَا يَعْلَمُونَ } [سبأ: ٢٨] ، وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ (ﷺ) ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) :"أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ". [رواه البخاري]

كذلك من تكريم الله لنبيه (ﷺ) **تفضيله علي غيره من الأنبياء**(عليهم السلام) ، فالحق سبحانه وتعالى فضل نبيه (ﷺ)علي سائر الأنبياء والرسل الكرام ، وهذا ما وضحه القرآن الكريم في قوله تعالى:{ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} (البقرة/٢٥٣) ، والذي عليه المحققون من العلماء والمفسرين أن المقصود بقوله تعالي: { وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ}هو سيدنا محمد(ﷺ) لأنه هو صاحب الدرجات الرفيعة ، وصاحب المعجزة الخالدة ، المتمثلة في القرآن الكريم ، وصاحب الرسالة الجامعة لمحاسن الرسالات السماوية السابقة ، وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم والترمذي ، من حديث أبي هريرة (ﷺ)أن النبي (ﷺ) قال:(فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِستٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ – وفي رواية البخاري: (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ – وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ).

كذلك من تكريم الله لنبيه(ﷺ): أن الله تعالى أقسم بحياته ولم يقسم بحياة أحد من البشر ، إننا نجد أن الحق سبحانه وتعالى حين يقسم على أشياء ليؤكدها، يقسم بأشياء كثيرة ومن أجناس شتى، من جماد وحيوان وملائكة ، من أماكن وأزمنة وظواهر كونية ، لكنّا لم نر الله يقسم في القرآن ببشر مطلقاً، اللهم إلا برسوله (ﷺ) في قوله تعالى:{لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}[الحجر: ٧٢] أي : بحق حياتك يا محمد إنهم لفي غفلة عمّا سينزل بهم ، إنهم لضالون في حيرة لا يعرفون لأنفسهم طريقاً ولا حقاً ولا رشدًا.. ولما زعم المشركون أن الله تعالى قد قلى محمدًا وهجره أقسم الله تبارك وتعالى على أنه ما ودّعه وما قلاه ، فقال تعالى:{وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) } [الضحى١-٥] .

عن ابن عباس –ﷺ– قال: قال رسول الله (ﷺ):"سألتُ ربي مسألةً وددت أني لم

أسأله، قلت: يا رب كانت قبلي رسلٌ منهم من سخرت لهم الرياح، ومنهم من كان يُحي الموتى. قال: ألم أجدك يتيمًا فأويتك؟ ألم أجدك ضالاً فهديتُك؟ ألم أجدك عائلاً فأغنيتُك؟ ألم أشرح لك صدرك؟ ووضعت عنك وزرك؟ قال: قلت: بلى يا رب"(حسن)[١٨]

ولا ننسى معجزاته التي أنعم الله – جل وعلا– به عليه كحادثة الصحيفة، وهم في شعب مكة، وواقعة الإسراء والمعراج، وواقعة تكليم الضب و الجزع و الشاة .. وغير ذلك مما حفّه الله تعالى به و خصَّه.

القسم الثالث : ما بعد حياته الشريفة (ﷺ):

فأما تكريم الله عز وجل لرسوله (ﷺ) بعد وفاته ، فاختصه الله تعالى بالشفاعة العظمى يوم الدين ، ففي حديث سعد بن مالك (ﷺ) أن النبي(ﷺ) قال:(أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ وَلَا فَخْرَ، وَلِوَاءُ الْحَمْدِ بِيَدِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ) (متفق عليه)[١٩]

ومن أعظم آيات التكريم: أن الله (عز وجل) جعله (ﷺ) رحمة للعالمين أجمعين ، حيث قال سبحانه : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[الأنبياء: ١٠٧] ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (ﷺ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ» [رواه الحاكم في المستدرك]، وفي رواية :«بُعِثْتُ رَحْمَةً مُهْدَاةً» .

وقد أنعم الله تعالى عليه بالحوض، كما ورد في صحيح البخاري عن سهل بن سعد قال قال النبي (ﷺ) " إني فرطكم على الحوض من مر عليّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا، ليردن عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم – قال أبو حازم فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال هكذا سمعت من سهل فقلت نعم فقال أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته وهو يزيد فيها – فأقول إنهم مني فيقال انك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول سحقًا سحقًا لمن غير بعدي "، وفي رواية أخرى: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ (ﷺ): (إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا ، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، فَأَقُولُ : إِنَّهُمْ مِنِّي ، فَيُقَالُ : إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ ، فَأَقُولُ: سُحْقًا، سُحْقًا، لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي) . رواه البخاري(٦٢١٢) ومسلم (٢٢٩٠) .

و عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ (ﷺ) قَالَ : (إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا

وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّــهُ خَلِيــلُ الــرَّحْمَنِ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَــيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُــولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّــهِ وَكَلِمَتُهُ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِــنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ أَنَا لَهَا فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِــي وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْــآنَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْــطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُــولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَــالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَــلُ ثُــمَّ أَعُــودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَــالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَــكَ وَسَــلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِــي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِــهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِــنْ إِيمَــانٍ فَأَخْرِجْــهُ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِــدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَــنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَــى أَدْنَــى مِثْقَــالِ حَبَّــةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ فَــأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ) فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَنَسٍ قُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا: لَوْ مَرَرْنَا بِالْحَسَنِ وَهُوَ مُتَوَارٍ فِــي مَنْزِلِ أَبِي خَلِيفَةَ فَحَدَّثْنَاهُ بِمَا حَدَّثَنَا أَنَسُ بْــنُ مَالِكٍ فَأَتَيْنَاهُ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَنَا فَقُلْنَا لَهُ : يَا أَبَا سَعِيدٍ جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فَلَمْ نَرَ مِثْلَ مَا حَدَّثَنَا فِي الشَّفَاعَةِ ، فَقَالَ: هِيهْ ، فَحَدَّثْنَاهُ بِالْحَدِيثِ فَانْتَهَى إِلَى هَذَا الْمَوْضِــعِ فَقَالَ : هِيهْ فَقُلْنَا لَمْ يَزِدْ لَنَا عَلَى هَذَا فَقَالَ لَقَدْ حَدَّثَنِي وَهُوَ جَمِيعٌ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً فَلَا أَدْرِي أَنَسِيَ أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَّكِلُوا ، قُلْنَا : يَا أَبَا سَــعِيدٍ فَحَدِّثْنَا ، فَضَحِكَ وَقَالَ : خُلِقَ الإِنْسَانُ عَجُولا مَا ذَكَرْتُهُ إِلا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ حَدَّثَنِي كَمَا حَدَّثَكُمْ بِهِ قَالَ : (ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَــةَ فَأَحْمَــدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْــفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لا إِلَــهَ إِلا اللَّهُ فَيَقُولُ وَعِزَّتِي وَجَلالِــي وَكِبْرِيَــائِي وَعَظَمَتِي لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَــالَ لا إِلَــهَ إِلا اللَّهُ)(رواه البخاري ٧٥١٠)

المحور الرابع : سورة " الضحى " نموذجًا :

المطلب الأول : ســبب اختيــار ســورة " الضحى " .

المطلب الثاني : المقصود بالضحى لغة و اصطلاحًا .

المطلب الثالث: أسباب نــزول ســورة " الضحى " .

المطلب الرابع : تفسير سورة " الضحى ".

المطلب الخامس : أثر نزول سورة " الضحى "على رسولنا الكريم و على الدعوة الحنيفة .

المطلب السادس : فوائد سورة الضحى.

المطلب الأول : سبب اختيار سورة " الضحى " :

يرجع اختيارنا لسورة " الضحى " كنموذج لامتنان الرحمن لرسول الأنام ، بسبب :

أولًا : نزول سورة (الضحى) في بدايات الدعوة الإسلامية ، و في وقت عصيب كان يمر به سيد الأنام .

ثانيًا : ما تحمله هذه السورة المكية من بيان لمكانة رسول الله (ﷺ) عند رب العالمين .

ثالثًا : طمأنة رسول الله (ﷺ) ، و تثبيت فؤاده ، و قسم الله – جل و علا – و هو قسم عظيم بعدم التخلي عن حبيبه (ﷺ) تخفيفًا عنه و تلطيفًا .

رابعًا :أن لنا فيها وفقة أشار إليها سيد الخلق (ﷺ) حين طلب مسألة من ربه .

خامسًا : ما تحمله من نعم قد أنعم الله بها على رسوله الكريم ، و ما تحمله من قوة الرسالة للمشركين من الله عز و جل ، بعدما افتروا عليه (ﷺ) بهتانا ، و قالوا الأكاذيب .

المطلب الثاني : المقصود بالضحى لغة و اصطلاحًا :

أولًا : معنى (الضحى) لغة :

والضحى– فيمايقول الراغب : انْبِساطُ الشمسِ وامْتِدادُ النّهارِ، وسُمِّي الوَقْتُ بـه . (٢٠)

ضُحىً : مادة (ض ح و) و منه ضُحىً و ضحوة و المصدر ضَحِي ، و يُقال : زَارَهُ وَقْتَ الضُّحَى : أي وَقْتَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ وَانْتِصافِهِ . (٢١)

ضحَّى:(فعل):ضحَّى بـ يُضحِّي، ضَحِّ، تضحيةً، فهو مُضَحٍّ، والمفعول مُضحًّى به. ومنه ضحَّى بعمله/ ضحَّى بماله: تبرَّع به دون مقابل، وضَحَّى عن الشيءِ: ترفَّقَ ولم يَعْجَلْ، ضحَّى بالنَّفس والنَّفيس : قدَّم حياتَه وأغلى ما يملك دون مقابل، وضَحَّى بالشاةِ ونحوها: ذَبَحَها في الضُّحَى يومَ عيد الأَضْحَى، وضَحَّى الحيوانَ: أَطْعَمَهُ في الضُّحَى، وضَحَّى الماشيةَ : رعاهَا في الضُّحَى .

ضُحى : (اسم) : الضُّحَى : وضَحْوَة ؛ وقت ارتفاع النهار وامتداده .(٢٢)

ثانيًا : تعريف (الضحى) اصطلاحًا :

الضُّحى: اسم سورة في القرآن الكريم، وهي السُّورة رقم (٩٣) في ترتيب المصحف، مكِّيَّة، عدد آياتها إحدى عشرة آية.

صلاة الضُّحى : من الصَّلوات النَّوَافِل التي واظب عليها الرسولُ صـلّى الله عليـه وسلّم ، وأقلُّهـا ركعتـان وأكثرهـا ثمـاني ركعات، ووقتها من بعد شروق الشَّمس بثلث أو نصف السَّاعة وحتى قبـل أذان الظهـر بثلث أو نصف السَّاعة .

و يُقال : ما لكلامِهِ ضُحًى : ما لَهُ بيانٌ .

والضحى يوحي فيما يوحي، بمعنـى الأذى، والشدة ، قال الليث: ضَحِيَ الرجـلُ يَضْحى ضَحًا: إذا أَصابَهُ حَرُّ الشمس قال الله تعالى: (وأَنك لا تَظْمَأُ فيها ولا تَضْحى) قال: لا يُؤْذِيك حَرُّ الـشمس. وقـال الفـراء: لا تَضْحى: لا تُصِيبُك شمسٌ مؤْذِيَةٌ .

المطلب الثالث: أسباب نزول سورة "الضحى" :

ورد أن سبب نزول سورة الـضحى كما جـاء فـي أسـباب النـزول للإمـام النيسابوري ، قوله : (أَخْبَرَنَا أَبُو مَنْـصُورٍ الْبَغْدَادِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ السَّرَّاجُ، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ الْمُثَنَّى بْنِ مُعَـاذٍ، حَدَّثَنَا أَبُو حُذَيْفَةَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَـنِ الْأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ جُنْـدَبٍ، قَـالَ: قَالَـتِ (امْرَأَةٌ مِنْ قريش) للنبي (ﷺ) : مَـا أَرَى شَيْطَانَكَ إِلَّا [قَدْ] وَدَّعَكَ. فَنَـزَلَ: وَالـضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ يُونُسَ، عَنْ زُهَيْـرٍ، عَنِ الْأَسْوَدِ. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ رَافِعٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ آدَمَ، عَنْ زُهَيْرٍ) .[٢٣]

و قد ذكر المفسرون فى سبب نـزول هذه السورة الكريمة روايات منها: ما أخرجه الإمام البخارى ومسلم وغيرهما عن جنـدب بن سفيان قال: اشتكى رسـول الله (ﷺ) فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امـرأة – وفـى رواية أنها أم جميل امرأة أبى لهب – فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قـد تركـك . فأنزل الله – تعالى–: (والضحى . والليل إِذَا سجى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى).

وأخرج ابن أبى شيبة والطبرانى وابن مردويه، من حديث خولة، وكانت تخدم النبى (ﷺ) " أن جروا دخل تحت سرير رسول الله (ﷺ) فمات، فمكـث النبـى (ﷺ) أياما لا ينزل عليه الوحى، فقال (ﷺ) يـا خولة ماذا حدث فـى بيتـى، إن جبريـل لا يأتينى، قالت خولة: فقلت يا نبى الله ما أتـى علينا يوم خير منّا اليوم . فأخذ برده فلبـسه، وخرج، فقلت فى نفسى لـو هيـأت البيـت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فإذا بشئ ثقيل، لم أزل به حتى بدا لـى الجـرو ميتًا، فأخذته بيدى ، فألقيته خلـف الـدار ، فجاء (ﷺ) ترعد لحيته – وكان إذا نـزل عليه الوحى أخذته الرعدة – فقال يا خولـة دثرينى ، فأنزل الله – تعالى – هذه السورة".

وذكر بعضهم : إن جبريـل – عليـه السلام – أبطأ فى نزوله على النبى (ﷺ)

، فقال المشركون : قد قلاه ربه وودعه ، فأنزل الله – تعالى – هذه الآيات . (٢٤)

و قال الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي: (أخرج الشيخان وغيرهما عن جندب قال : اشتكى النبي (ﷺ) فلم يقم ليلة أو ليلتين فاتته امرأة فقالت يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فأنزل الله والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ، وأخرج سعيد بن منصور والفريابي عن جندب قال أبطأ جبريل على النبي (ﷺ) فقال المشركون قد ودع محمد فنزلت ، وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم قال مكث رسول الله (ﷺ) أياما لا ينزل عليه جبريل فقالت أم جميل امرأة أبي لهب ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك فأنزل الله والضحى الآيات) . (٢٥)

المطلب الرابع : تفسير سورة " الضحى " :

قال تعالى:" وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ(٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) " . صدق الله العظيم

التفسير :

" **وَالضُّحَىٰ(١)** " :

أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه بالضحى . (٢٦)

و هو وقت ارتفاع الشمس بعد إشراقها ، وهو وقت النشاط والحركة ، والإقبال على السعى والعمل ولذا خص بالقسم به ، وقيل : المراد بالضحى هنا : النهار كله ، بدليل أنه جعل فى مقابلة الليل كله .

والأول أولى : لأن الضحى يطلق على وقت انتشار ضياء الشمس حين ترتفع ، وتلقى بأشعتها على الكون ، ويبرز الناس لأعمالهم المتنوعة. (٢٧)

" **وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ(٢)** " :

ومعنى «سجا» : سكن ، يقال: سجا الليل يسجو سجوا، إذا سكن وهدأ وأسدل ظلامه على الكون ، ويقال: تسجّى فلان بملابسه، إذا غطى بها جميع جسده، ومنه قولهم: سجّى الميت تسجية، إذا غطى بكفنه ، قال صاحب الكشاف: قوله: سَجى أي : سكن وركد ظلامه ، وقيل: ليلة ساجية ،أي : ساكنة الريح: وقيل معناه: سكون الناس والأصوات فيه ، وسجا البحرسكنت أمواجه ، وطرف ساج، أي : ساكن فاتر .

أي : وحق الضحى وهو الوقت الذي ترتفع فيه الشمس، ويتم إشراقها، ويأخذ الناس في النشاط والحركة ، وحق الليل إذا سكن وهجع فيه الناس بعد عناء العمل .

" **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ(٣)**" :

وجواب القسم قوله- تعالى-: " **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ** " أي : ما تركك ربك- أيها الرسول الكريم- منذ أن اختارك لحمل رسالته، وما أبغضك ولا كرهك، بل أنت محل رضانا ومحبتنا ورعايتنا ، فقوله: (وَدَّعَكَ) من التوديع، وهو في الأصل الدعاء للمسافر، ببلوغ الدعة، وخفض العيش، ثم استعير للمفارقة بعد الاتصال، تشبيها بفراق المسافر في انقطاع الصلة، حيث شبه- سبحانه- انقطاع صلة الكلام بانقطاع صلة الإقامة ، والمقصود: نفى أن يكون الله- تعالى- قد قطع وحيه عن نبيه (ﷺ) ، وقوله: (قَلَى) من القلا- بكسر القاف- وهو شدة البغض، يقال: قلا فلان فلانا يقليه، إذا كرهه وأبغضه بشدة ، ومنه قوله- تعالى-: (إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ) والمراد : ما قطع الله- تعالى- عنك وحيه- أيها الرسول الكريم-، وما كرهك، وهذا رد بليغ على المشركين الذين زعم بعضهم أن الله- تعالى- قد ترك نبيه، وزعم آخرون أنه قد أبغضه، وحذف مفعول «قلا» للدلالة عليه في قوله- تعالى-(ما وَدَّعَكَ) ، وهو إيجاز لفظي لظهور: المحذوف، ومثله قوله- تعالى- بعد ذلك: فَآوى، فَهَدى، فَأَغْنى .

و قال الإمام الحافظ ابن كثير في تفسيره : (وقد ذكر بعض السلف منهم ابن إسحاق أن هذه السورة هي التي أوحاها جبريل إلى رسول الله (ﷺ) حين تبدى له في صورته التى خلقه الله عليها ودنا إليه وتدلى منهبطا عليه وهو بالأبطح" فأوحى إلى عبده ما أوحى "قال: قال له هذه السورة" **وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢)** " قال العوفي عن ابن عباس: لما نزل على رسول الله (ﷺ) القرآن أبطأ عنه جبريل أيامًا فتغير بذلك ، فقال المشركون ودعه ربه وقلاه فأنزل الله" **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ** "وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء" **وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ** "أي سكن فأظلم وأدلهم – قاله مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد وغيرهم –وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا كما قال تعالى" والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى "وقال تعالى" فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم "، وقوله تعالى" مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ "أي ما تركك" وَمَا قَلَىٰ "أي وما أبغضك)[٢٨]

" **وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤)** " :

يقول الشيخ الطنطاوي في تفسيره " ثم بشره- سبحانه- ببشارتين عظيمتين، قد بلغتا

الدرجة العليا في السمو والرفعة، فقال: وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى (٥) " ، أي : وللدار الآخرة وما أعده الله لك فيها من نعيم لا يحيط به وصف، خير لك من دار الدنيا التي أعطيناك فيها ما أعطيناك فيها من نبوة، وكرامة ومنازل عالية، وخلق كريم ، وفضلا عن كل ذلك فأنت- أيها الرسول الكريم- سوف يعطيك ربك من خيرى الدنيا والآخرة، كل ما يسعدك ويرضيك، من نصر عظيم، وفتح مبين، وتمكين في الأرض، وإعلاء لكلمة الحق على يدك، وعلى أيدى أصحابك الصادقين، ومنازل عظمى في الآخرة لا يعلم مقدارها إلا الله- تعالى-، كالمقام المحمود، والشفاعة، والوسيلة ، وبذلك ترضى رضاءً تامًا بما أعطاك- سبحانه- من نعم ومنن .

فالمراد بالآخرة: الدار الآخرة التي تقابل الدار الأولى، وهي الحياة الدنيا، وبعضهم جعل المراد بالآخرة، نهاية أمره (ﷺ) في هذه الدنيا، والمراد بالأولى بداية أمره (ﷺ) في هذه الدنيا، فيكون المعنى: ولنهاية أمرك- أيها الرسول الكريم- خير من بدايته، فإن كل يوم يمضى من عمرك، سيزيدك الله- تعالى- فيه، عزًا على عز، ونصرًا على نصر، وتأييدًا على تأييد ، حتى ترى الناس وقد دخلوا في دين الله أفواجا ، وقد صدق الله- تعالى- لنبيه وعده حيث فتح له مكة، ونشر دعوته في مشارق الأرض ومغاربها. قال الآلوسى: وحمل الآخرة على الدار الآخرة المقابلة للدنيا، والأولى على الدار الأولى وهي الدنيا، هو الظاهر ، وقال بعضهم: يحتمل: أن يراد بهما نهاية أمره صلى الله عليه وسلم وبدايته، فاللام فيهما للعهد، أو عوض عن المضاف إليه ،أي : لنهاية أمرك خير من بدايته، فأنت لا تزال تتزايد قوة، وتتصاعد رفعة" .

و يقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين (رحمه الله) في هذه الآية : (هذه الجملة مؤكدة باللام، لام الابتداء والآخرة هي اليوم الذي يبعث فيه الناس، ويأوون إلى مثواهم الأخير إلى الجنة أو إلى النار، فيقول الله لنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم }وَلَلآخرة خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى {أي: من الدنيا، وذلك لأن الآخرة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وموضع سوط أحدنا في الجنة خير من الدنيا وما فيها، كما جاء ذلك عن رسول الله (ﷺ). ولهذا لما خير الله نبيه (ﷺ) في مرضه بين أن يعيش في الدنيا ما يعيش وبين ما عند الله، اختار ما عند الله، كما أعلن ذلك (ﷺ) في خطبته حيث قال وهو على المنبر :«إن عبدًا من عباد الله خيّره الله بين أن يعيش في الدنيا ما شاء الله أن يعيش وبين ما عنده فاختار ما عنده»، فبكى أبو

بكر ﷺ وتعجب الناس من بكائه كيف يبكي من هذا، ولكنه – ﷺ– كان أعلم الناس برسول الله (ﷺ)، علم أن المخير هو الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأنه اختار ما عند الله وهو الآخرة، وأن هذا إيذان بقرب أجله) . (٢٩)

و هو ما أورده ابن كثير في تفسيره مبيناً زهد النبي (ﷺ) رغم الخير الوفير ، قائلًا : (أي : والدار الآخرة خير لك من هذه الدار ، ولهذا كان رسول الله (ﷺ) أزهد الناس في الدنيا ، وأعظمهم لها إطراحا ، كما هو معلوم [بالضرورة] من سيرته ، ولما خير ، عليه السلام في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة ، وبين الصيرورة إلى الله – عز وجل – اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية.

" **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)** " :

وجيء بحرف الاستقبال في قوله– تعالى–: " وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى" ، لإفادة أن هذا العطاء مستمر غير مقطوع، كما في قوله– تعالى–:" وَلَسَوْفَ يَرْضى " ، وحذف المفعول الثاني في قوله: (يُعْطِيكَ)، ليعم كل وجوه العطاء التي يحبها (ﷺ) أي : ولسوف يعطيك ربك عطاء يرضيك رضاءً تامًا. والتعبير بقوله (فَتَرْضى) المشتمل على فاء التعقيب، للإشعار بأنه عطاء عاجل النفع، وأنه سيأتى إليه (ﷺ) في وقت قريب، وقد أنجز– سبحانه– وعده، ،ولقد أعطاه الله ما يرضيه (ﷺ)، فإن الله تعالى يبعثه يوم القيامة مقامًا محمودًا، يحمده فيه الأولون والآخرون، حتى الأنبياء وأولو العزم من الرسل لا يستطيعون الوصول إلى ما وصل إليه ، فإذا كان يوم القيامة، وعظم الكرب والغم على الخلق، وضاقت عليهم الأمور طلب بعضهم من بعض أن يلتمسوا من يشفع لهم إلى الله عز وجل فيأتون إلى آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، هؤلاء خمسة أولهم أبو البشر، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وهؤلاء الأربعة(عليهم الصلاة والسلام) من أولي العزم، كلهم يعتذرون عن الشفاعة للخلق حتى تصل إلى النبي (ﷺ) فيقوم ويشفع، ولا شك أن هذا عطاء عظيم لم ينله أحد من الخلق ليجسد امتنان الرحمن على رسول الأنام.

قال الجمل: وقوله– سبحانه–: (وَلَلْآخِرَةُ) اللام فيه للابتداء مؤكدة لمضمون الجملة ، وإنما قيد بقوله– تعالى– (لَكَ) لأنها ليست خيرا لكل أحدوقوله : (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ ...) هذا وعد شامل لما أعطاه الله– تعالى– له من كمال النفس، وظهور الأمر، وإعلاء الدين ، واللام لام الابتداء، والمبتدأ محذوف، أي : ولأنت

سوف يعطيك ربك، وليست لام القسم، لأنها لا تدخل على المضارع، إلا مع نون التوكيد.

" **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦)** " :

ثم عدد– سبحانه– نعمه على نبيه (ﷺ) فقال: أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى ، والاستفهام هنا للتقرير، واليتيم: هو من فقد أباه وهو صغير ، أي : لقد كنت– أيها الرسول الكريم– يتيما، حيث مات أبوك وأنت في بطن أمك، فآواك الله– تعالى– بفضله وكرمه، وتعهدك برعايته وحمايته وعصمته، وسخر لك جدك عبد المطلب ليقوم بكفالتك، ومن بعده سخر لك عمك أبا طالب، حيث تولى رعايتك والدفاع عنك قبل الرسالة وبعدها، إلى أن مات.

و قال الإمام الحافظ ابن كثير في تفسير : (ثم قال تعالى يعدد نعمه على عبده ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه عليه) :ألم يجدك يتيما فآوى (وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه ، وقيل : بعد أن ولد ، عليه السلام ، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين ، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب ، إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب . ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره ، ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره ، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان ، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره ، إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل ، فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم ، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج ، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم والأكمل ، فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه ، رضي الله عنهم أجمعين ، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به) .

" **وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧)** " :

وقوله– تعالى– (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى) بيان لنعمة أخرى أنعم– سبحانه– بها على نبيه (ﷺ) .

وللمفسرين في معنى هذه الآية كلام طويل، نختار منه قولين: أولهما: أن المراد بالضلال هنا الحيرة في الوصول إلى الحق، والغفلة عما أوحاه الله– تعالى– إليه بعد ذلك من قرآن كريم، ومن تشريعات حكيمة ، مع اعتقاده (ﷺ) قبل النبوة أن قومه ليسوا على الدين الحق، بدليل أنه لم يشاركهم في عبادتهم للأصنام، ولا في السلوك الذي يتنافى من مكارم الأخلاق ، وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله: (ضَالًّا) معناه: الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع ، (ﷺ) قد نشأ في بيئة منحرفة في عقائدها وأخلاقها، لم تطمئن نفسه الكريمة إليها، إلا أنه كان حائرًا في الوصول إلى

الدين الحق، فهداه الله- تعالى- إليه، والهداية إلى الحق بعد الحيرة والضلال عنه، منة عظمى، ونعمة كبرى.

وهناك أقوال أخرى ضعيفة كقولهم: (ضَالًّا) أي : عن القبلة فهداك الله إليها، أو ضَالًّا في شعاب مكة، فهداك الله وردك إلى عمك أو ضَالًّا في سفرك مع عمك إلى الشام، فردك الله- تعالى- إليه .

" **وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ** (٨) " :

وقوله- سبحانه-: " وَوَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى " بيان لنعمة ثالثة من نعمه- تعالى- على نبيه (ﷺ) ، وأصل العائل: الإنسان الذي له عائلة لا يستطيع الإنفاق عليها، ثم أطلق هذا اللفظ على الإنسان الفقير حتى ولو لم تكن له عائلة أو أسرة، والفقر يسمى عيلة، كما في قوله- تعالى-: (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً- أى: فقرًا- فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ) أي : وقد كنت- أيها الرسول الكريم- فقيرًا، حيث مات أبوك دون أن يترك لك مالًا كثيرًا، ونشأت في كنف جدك ثم عمك، وأنت على هذه الحال ، ثم أغناك الله- تعالى- بفضله وكرمه بنوعين من الغنى : أما أولهما- وهو الأعظم-: فهو غنى النفس، بأن منحك نفسا عفيفة قانعة بما أعطاك- سبحانه- من رزق، حتى ولو كان كفافا .

وأما ثانيهما: فهو الغنى المادي عن الاحتياج إلى الناس، بما أجراه على يديك من الربح في التجارة، وبما وهبتك زوجك خديجة من مالها، فعشت مستور الحال، غير محتاج إلى من ينفق عليك .

وهكذا نجد الآيات الكريمة تبين لنا أن من فضل الله- تعالى- على نبيه (ﷺ) أنه آواه في يتمه وصغره، وهداه من ضلاله وحيرته، وأغناه بعد فقره وحاجته ، وبعد أن عدد- سبحانه- هذه النعم لنبيه صلى الله عليه وسلم أمره بشكرها، وأداء حقوقها ، و يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره : (وقوله:)ووجدك عائلا فأغنى (أي : كنت فقيرا ذا عيال ، فأغناك الله عمن سواه ، فجمع له بين مقامي الفقير الصابر والغني الشاكر ، (ﷺ) .

وقال قتادة في قوله : (ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى)قال : كانت هذه منازل الرسول (ﷺ) قبل أن يبعثه الله عز وجل. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وفي الصحيحين – من طريق عبد الرزاق – عن معمر ، عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " : ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس " .

وفي صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله (ﷺ): " قد

أفلح من أسلم ، ورزق كفافا ، وقنعه الله بما آتاه " .

" **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩)** " :

قال– تعالى–: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ) والقهر: التغلب على الغير والإذلال له ، أي : إذا كان الأمر كما أخبرتك من أنك كنت يتيما فآويناك، وكنت ضالًا فهديناك، وكنت فقيرًا فأغنيناك، فتذكر هذه النعم، واشكر ربك عليها، ومن مظاهر هذا الشكر: أن تواسى اليتيم، وأن تكرمه، وأن تكون رفيقا به، ولا تكن كأهل الجاهلية الذين كانوا يقهرون الأيتام ويذلونهم ويظلمونهم، ولقد استجاب النبي (ﷺ) لما أمره ربه به، فأكرم اليتامى ورعاهم، وحض على ذلك في أحاديث كثيرة منها قوله (ﷺ) : «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وأشار (ﷺ) بإصبعيه السبابة والوسطى.

" **وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠)** " :

وقوله– سبحانه–: " وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ " معطوف على ما قبله ،أي : وكما أننا قد هديناك بعد حيرة ، فاشكر نعمنا على ذلك، بأن تفتح صدرك للسائل الذي يسألك العون، أو يسألك معرفة ما يجهله من علم ، فالمراد بالسائل، ما يشمل كل سائل عن مال، أو عن علم، أو عن غير ذلك من شئون الحياة.

قال القرطبي: قوله: " وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ " أي : لا تزجره، فهو نهى عن إغلاظ القول. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ردوا السائل ببذل يسير، أو رد جميل" وفي حديث أبى هارون العبدى قال: كنا إذا أتينا أبا سعيد الخدري يقول: مرحبا بوصية رسول الله (ﷺ) ، إن رسول الله قال: " إن الناس لكم تبع، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا" .

"**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)** " :

قال الإمام ابن كثير: وقوله: " وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ "أي : وكما كنت عائلًا فقيرًا فأغناك الله، فحدث بنعمة الله عليك، كما جاء في الدعاء: «واجعلنا شاكرين لنعمتك. مثنين بها، قابليها، وأتمها علينا» .

وعن أبى نضرة قال: كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدّث بها ، وعن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر: " من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس، لم يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب " ، فأنت ترى أن الله– تعالى– قد ذكر ثلاث نعم مما أنعم به على نبيه (ﷺ) وأرشده إلى كيفية شكرها ، نسأل الله– تعالى– أن يجعلنا من عباده الشاكرين .

المطلب الخامس : أثر نزول سورة "الضحى" على رسولنا الكريم و على الدعوة الحنيفة :

١ – التخفيف عن رسول الأنام (ﷺ) و اللطف به .

٢ – رفع همَّة النبي (ﷺ) بتذكيره بوعد الله –تعالى– له بأنه لم ولن يتركه أو يتخلى عنه، وهو حبيب الرحمن(ﷺ) .

٣ – خرس ألسنة المشركين ، و ما ادعوه افتراءً على رسول الأنام (ﷺ) .

٤ – بيان امتنان الرحمن و فضله على رسول الأنام (ﷺ) ، و هو الزاهد في الدنيا ، الفقير إلى الله (ﷺ).

٥ – تحفيزه (ﷺ) بإحاطته بمكانته عند الرحمن ، و ما أعد له من نعم في الدنيا و الآخرة ، و التي تصل لحد إرضائه (ﷺ) .

٦ – بيان العناية الإلهية لرسول الله ، و حفظ الرحمن له (ﷺ) ، و تذكير النبي بشيء من هذه العناية بإيجاز بلاغي إعجازي يمثل مراحل حياته (ﷺ) ، فكان يتيمًا (ﷺ) فآواه ربه ، و كان ضالًا (ﷺ) فهداه ربه، و كان عائلًا (ﷺ) فأغناه ربه – تعالى– الأمر الذي كان له عظيم الأثر في نفس النبي (ﷺ) انعكس على الدعوة فيما بعد بالإيجاب .

٧ – بيان مكانة اليتيم عند رب العباد، والتربية الإلهية لرسول الأنام بكيفية معاملته ، و لنا فيه (ﷺ) الأسوة الحسنة .

٨ – بيان كيفية معاملة السائل ، و هي لفتة تربوية إلهية أخرى من رب العباد لرسوله الكريم .

٩ – ثم الجهر بالنعم التي أنعم الرحمن بها على رسوله الحبيب ، و أولها نعمة الإسلام سبحانه منْ له الفضل الحنّان المنّان .

المطلب السابع : فوائد سورة الضحى :

إن المواظبة على قراءة سورة الضحى تُعد من أعظم طرق الشعور بالطمأنينة والراحة القلبية، فسورة الضحى من أعظم السور في القرآن الكريم ، فهي تحثك على أن تكون إيجابيا وتثق بالله عز وجل.

لم يثبت قولاً عن النبي (ﷺ) حول فضل سورة الضحى على وجه الخصوص، غير أنّ أحد العلماء ومنهم سيد قطب قال عن سورة الضحى: (لمسة من حنان، ونسمة من رحمة، وطائف من وُدّ، ويد حانية تَمسَح على الآلام والمواجع، وتَنْسَم بالروح والرضا والأمل، وتَسكُب البَرْدَ والطمأنينة واليقين)، ففيها من الدروس والمعاني المستفادة الشيء الكثير نورد منها:

- بلسم وعزاء للنبي محمد (ﷺ) والماضين على دربه بأن الله لن يتركهم مهما تكالبت عليهم الأحداث من سوء وضيق وابتلاءات، فيجب الإدراك أنّ هذا من ضرورات التمكين والفجر قادم فلا يسخط المسلم على قدر قدره الله .
- تذكير النبي محمد والماضين على دربه أنّ الأمور في خواتيمها، وأنّ الحياة الدنيا المحرقة ستؤدي إلى حياة أخروية مشرقة. تذكير إلى كلّ من يكثر الشكوى والاعتراض بنعم الله العديدة الواجب استشعارها، فالصحة نعمة لا نستشعرها إلا بالرض، والابن البار نعمة لا نستشعرها إلا أن نسمع عن عقوق أحدهم، والصديق الصالح نعمة لا نستشعرها إلا أن نرى من هو وحيد بلا صديق، والاستيقاظ نعمة لا نستشعرها إلا أن نسمع عن احد نام ولم يستيقظ،
- وفي سورة الضحى دعوة من الله لاستشعار نعمه التي لا تعد ولا تحضى، وعدم نكرانها وجحودها لضيق حل أو سحابة صيف ، دعوة من الله تعالى بكفل اليتيم والإحسان إلى الفقراء واليتامى، وعدم نهر السائل إذا سأل بل ضرورة إعطائه، فهذه أمور فيها نجاة من النار ومخرجاً منها إلى الجنة .
- لكل إنسان يشعر بالبعد عن الله فعليه أن قراءة سورة الضحى وبإذن الله تعالى سيشعر بمحبة الله – جل و علا – له ، وكما طمأنت آيات هذه السورة العظيمة قلب النبي كونوا على يقين بأنه سينالكم نصيب من هذا الاطمئنان أيضًا قريبًا جدًا ، سيتحقق وعد الله إن شاء الله ، لهذا السبب قال سفيان الثوري مقولته الرائعة " والله ما أحبُّ أن يجعل الله حسابي إلى أبويّ في يوم القيامة بل أريد أن يحاسبني هو عوضًا عن والديّ في يوم القيامة لعلمي أن الله أرحم بي منهما " ، إذا آمنت بأن الله يحبك أكثر من والديك فالله سيحبك أكثر من والديك، وإذا آمنت أن الله سيغفر لك جميع ذنوبك وخطاياك فإنه سيغفر لك كل خطاياك، إذا آمنت أن الله سيدخلك الجنة لن يخذل الله ثقتك به وسيستجيب دعاءك بإذنه و فضله ويُدخلك الجنة لا إله إلا هو أرحم الراحمين .

نتائج البحث و توصياته :

الحمد لله حتى يبلغ الحمد منتهاه ، له الحمد و له الشكر الحنَّان المنَّان ، فمن خلال هذا البحث و ما تقدم ، قد أجبنا على أسئلته ، و بينَّا امتنان الرحمن – جل و علا – على رسول الأنام (ﷺ)، كما وقفنا على عظيم منزلة رسول الله (ﷺ) عند رب العزة و

الملكوت ، و وضحنا شيء من فضل الله عليه ، و أخذنا سورة الضحى نموذجًا نستعين به في هذا التبيان ، راجيين من الله الخير سبحانه و تعالى من وراء القصد .

أما عن توصيات البحث فقد أشرنا إليها خلال مناقشة محاوره ، كما نوصي بدراسة بحثية في دور الصحابة الكرام و أخص السابقين الأولين و الخلفاء الراشدين في معاونة رسول الأنام في دعوته و خدمة هذه الدعوة ، و خاصة و أن وجودهم نعمة عزز الله – جل و علا – بها رسوله الكريم (ﷺ) ، كما أوصي بدراسة بحثية حول أم المؤمنين (خديجة بنت خويلد) و أثر توقيت دخولها في حياة النبي (ﷺ) على الدعوة الإسلامية باعتبارها نعمة من أجل النعم التي منَّ الرحمن على رسوله بها (ﷺ) .

<u>هوامش الدراسة:</u>

(١) معجم المعاني الجامع – د. مروان العطية – مادة (امتنان) اسم و فعل .

(٢) المعجم الغني – عبد الغني أبو العزم – مادة (م ن ن) .

(٣) معجم اللغة العربية المعاصر – أحمد مختار عمر – الكشف عن (امتنان).

(٤) معجم الرائد – جبران مسعود – دار العلم للنشر ١٩٩٢ – الكشف عن (إمتن).

(٥) سنن الترمذي – البر و الصلة – رقم (١٩٥٤) ، و حكم الألباني : صحيح – المشكاة (٣٠٢٥) ، الصحيحة (٤١٧) ، التعليق و الترغيب (٢ / ٥٦) .

(٦) أخرجه إسحاق في (مسنده) – نتائج الأفكار ٢ / ٢٨٢ ، و النسائي في (اليوم و الليلة ١٠٩) .

(٧) تفسير القرآن العظيم – الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير – تحقيق محمد حسين شمس الدين – دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى – سورة البلد ج ٨ صـ ٣٩١.

(٨) صحيح البخاري – الإمام الحافظ محمد بن إسماعيل البخاري– تحقيق محمد بن زهير ناصر– كتاب الرقاق ٦٠٤٩ – دار طوق النجاة –الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ .

(٩) صحيح مسلم – الإمام الحافظ مسلم بن الحجاج – كتاب الفضائل – باب من فضائل الخضر (عليه السلام) – رقم الحديث ٤٣٩٢ .

(١٠) مرجع سابق – رقم ٧ .

(١١) بحار الأنوار (الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار (عليهم السلام)) : ١٥ / ١٠٥ ، للعلامة الشيخ محمد باقر

المجلسي ، المولود بإصفهان سنة : ١٠٣٧ ، و المتوفى بها سنة : ١١١٠ هجرية ، طبعة مؤسسة الوفاء ، بيروت / لبنان ، سنة : ١٤١٤ هجرية.

(١٢) الرحيق المختوم – صفي الدين المباركفوري (رحمه الله) – دار الهلال للطبع و النشر – بيروت – الطبعة الأولى ٢٠١٠ م – صـ ٥٤ .

(١٣) بحار الأنوار (الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار (عليهم السلام)) : ١٦ / ١٩٠.

(١٤) بحار الأنوار (الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار (عليهم السلام)) : ٩١ / ٧٣ ، للعلامة الشيخ محمد باقر المجلسي ، المولود بإصفهان سنة : ١٠٣٧ ، و المتوفى بها سنة : ١١١٠ هجرية ، طبعة مؤسسة الوفاء ، بيروت / لبنان ، سنة : ١٤١٤ هجرية.

(١٥) معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي – للإمام محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي – تحقيق محمد بن عبد الله النمر – دار طيبة للنشر – الطبعة الرابعة ١٩٩٧ – ج ٢ صـ ٦١ .

(١٦) المستدرك على الصحيحين – أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري – كتاب التفسير – تفسير سورة الأحزاب ١٣٩٤ – دار المعرفة – ١٩٩٨ .

(١٧) مرجع سابق – رقم ٧ .

(١٨) الصحيح المسند من الأحاديث القدسية – أبو عبد الله مصطفى بن العدوي شلباية المصري – دار الصحابة للتراث – ج ١ – صـ ١٣٨.

(١٩) سنن ابن ماجه – ابن ماجه القزويني – ٤٣٠٦ / ٤٣٠٨ – و ورد في مسند الإمام أحمد – الإمام أحمد بن حنبل – ١٠٧٧٥ / ١٠٦٠٤ – عن الصحابي سعد بن مالك – و ورد في صحيح مسلم عن الصحابي عبد الرحمن بن صخر ٤٢٣٠ / ٢٢٧٩ – و رواية أبي هريرة أخرجها الطبراني في الأوسط (١٨٣٥) وابن الجوزي في الموضوعات (٤٥٢) .

(٢٠) الراغب الأصفهاني– مفردات القرآن– كتاب الضاد:١/٥٠٢ .

(٢١) المعجم الغني – مرجع سابق رقم ٢ .

(٢٢) معجم المعاني الجامع – مرجع سابق رقم ١ .

(٢٣) أسباب نزول القرآن – للإمام أبو الحسين علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري – دار الكتب

العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١١هـ – تحقيق كمال بسيوني زغلول – و الحديث أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٠٢) وفي الأدب (٦١٤٦)وأخرجه مسلم في الجهاد والسير (١١٢، ١١٣/ ١٧٩٦) ص ١٤٢١.

(٢٤) تفسير الوسيط للقرآن الكريم – للدكتور محمد سيد طنطاوي – دار نهضة مصر للطباعة و النشر – الطبعة الأولى ١٩٩٧ .

(٢٥) لباب النقول في أسباب النزول – عبد الرحمن بن أبي بكر ، جلال الدين السيوطي – دار الكتب العلمية بيروت – لبنان – ج ١ ص ٢١٢ – تحقيق أحمد عبد الشافي .

(٢٦) تيسير الكريم في تفسير كلام المنان – عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي – تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ –ج ١ ص ٩٢٨ .

(٢٧) تفسير الوسيط – مرجع سابق رقم ٢٤.

(٢٨) تفسير القرآن العظيم – مرجع سابق رقم ٧ .

(٢٩) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه إلى المدينة (٣٩٠٤) ومسلم كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨٢) (٢).